
بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: النفس في قفص الاتهام
تأليف: كمال السيد
التصحيح والتدقيق: الدكتور الشيخ حسين اليوسف
الطبعة: الأولى، ٢٠٢٣م
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة
نشر: مؤسسة كلمات للطباعة والنشر - مداد للثقافة والإعلام

كلمات
للطباعة والنشر
لنشر آثار كمال السيد

مداد
للثقافة والإعلام
MIDAD cultural coordination

Bahrain - Jidhafs / AlHashimi Complex
+973-36671135 midad_bh
midadbh@gmail.com

+989331072412 kamal.alsayeed
kamalalsayedd kamalalsayeed
kamalalsayed kamalalsayed.net
kaleemat.pub@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إلهي..

إليك أشكو نفساً بالسوء أمارة وإلى الخطيئة مبادرة

إلهي..

أشكو إليك عدوا يضلني وشيطانا يغويني

مقدمة الناشر

يستند هذا الكتيب بالدرجة الأولى إلى كتاب تحت عنوان «هكذا عرفت نفسي» للسيد محمد جمال الهاشمي وقد صدرت طبعته الأولى في مطلع السبعينيات من القرن الماضي ويستمد قوته من خلال تجربة روحية عبّر عنها المؤلف بلغة موحية في إطار قصصي مشوق.

ويأتي نشر هذا الكراس ليكون دعوة إلى من يهمه نشر المعارف الإنسانية والحكمة في العمل على إعادة طبع الكتاب القيم وترجمته إلى عدد من اللغات الحية.

مؤسسة كلمات للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

عالم الإنسانية.. عالم عميق الأغوار.. عالم غامض ومجهول، كثيرون من البشر يتصورون أنفسهم صغاراً محدودين لكننا لو أصغينا إلى هؤلاء وتساءلنا معهم عن شعور بالبداية أو إحساس بالنهاية لقلّما وجدنا منهم من يذكر له بداية أو تخطر في باله نهاية.

إن المرء يكاد ينكر أن تكون بدايته لحظة الميلاد، ويكاد يرفض في الوقت نفسه أن يكون الموت هو النهاية.. هذا الإحساس المتجذر في الذات قد يكون أول الأدلّة على أن تاريخ الإنسان روحياً يمتد إلى ماض سحيق، أما مستقبله فسوف يستمر إلى ما شاء الله، وما الدنيا إلاّ مرحلة عابرة في مسار طويل.. طويل جداً. يقولون إن الشعور بالظمأ أكبر دليل على وجود الماء.. والشوق إلى الخلد دليل على وجود عالم الخلد.. وإن الإنسان أكبر مما نتصور؛ يقول الإمام علي عليه السلام:

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك فيك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

الإنسان مخلوق من طين من صلصال من حمأ مسنون، ثم نفخ الله فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلّها، وسجد له الملائكة كلهم أجمعون، وكرّمه الله وخلقه في أحسن تقويم، وشاءت إرادته سبحانه أن يُمتحن في عالم الدنيا، أن يكتشف بنفسه الطريق إلى الله، وأضاء الله له معالم الطريق..

يقول الإمام عليه السلام: من عرف نفسه فقد عرف ربّه.

اكتشاف الإنسان نفسه يعني اكتشافه البداية والمآل.. نقطة الانطلاق وطريق العودة.

وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو، وإن الدار الآخرة لهي الحياة الحق.

الدنيا مقطع عابر في عمر الإنسان.. والدنيا بظروفها والمعاناة التي فيها تستحيل بالنسبة للنفوس التي تتطلع للحياة الحقيقية والخلود الأخضر إلى سجن، وأن الكيان الإنساني إنما يكمن في البناء الروحي، وما جسد الإنسان إلاّ قفصا أو رداءً مثقلا بالمادّة والطين والأدران:

أنا عصفور وهـذا قفصـي طرت عنه وبقي مـرتهـنا
أنا في الصور وهذا جسدي كان ثوبي وقميصي زمنا
وأنـــا الآن أناجـــي مـــلأً وأرى الله جهـــاراً علنـــا
لا تـــظنـنـوا الـموت موتاً إنه ليـس إلا نقلة من هاهنا

إنه من الظلم الكبير والسقوط أن يعتبر البعض تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام.. أو يقول:

إنما الدنيا طعام
وشراب ومنام
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

كلّا إن الإنسان أعظم وأسمى من ذلك، إن تاريخه هو تاريخ البحث عن الحقيقة عن الله عن البداية والمصير.

لقد قرأت في مراهقتي عدّة كتب تأثرت بها أيما تأثر، في البداية قرأت كتاب «ألف ليلة وليلة» حيث العوالم المسحورة تمزج بين الحقيقة والخيال تجاربَ الإنسان وطموحاته وتطلعاته، ولكن كل ذلك كان يصور عالم اللذائذ الحسية المترعة بالمتع.. حيث الدنيا كؤوس من الخمر المعتقة وفتيات الشرق الساحرات وليالي اللذة الحمراء وأطباق الأطعمة الشهية والمغامرات

الجنسية..

وقرأت كليلة ودمنة وما تنطق به الحكمة الإنسانية على لسان الحيوانات..

لكني تأثرت بشدّة لا توصف بـ «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» لمؤلفه نديم الجسر، وأحدثت في نفسي هزة روحية.. لأنه أيقظ في أعماقي عالم الروح وسمعت الله يناديني أن هلمّ إليّ..

وهذه الكتب كلّها معروفة في مكتباتنا العربية، لكني أريد أن ألفت النظر إلى كتاب آخر مضى أكثر من ٢٥ سنة على مطالعتي إياه «هكذا عرفت نفسي للمرحوم الأستاذ السيد محمد جمال الهاشمي»(١).. الذي سجل تجربته الفنية في هذا المضمار واعتبرها «رسالة تنزّلت عليّ في ساعة حالمة هزتني فوعيت فنظرت فاضطربت فكان من تلك الساعة ميلادي الجديد».

وميزة الكتاب أنه لا ينطوي على الجانب العلمي منه فحسب؛ بل أودع ذلك في قالب أدبي فني غاية في التأثير

١. النجفي العراقي.

والإمتاع.

ولأنني شبه متأكد من خلوّ المكتبات في العصر الحاضر من هذا الكتاب وأمثاله أثبت بعض المقاطع منه فقد تكون دعوة لإعادة طبعه وتقديمه من جديد في وقت نحن في أمس الحاجة إلى اكتشاف أنفسنا وإعادة صياغة الباطن:

جرس يرن باتصال، وصوت يتردد في الفضاء ويقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ هنا محكمة الحقائق، هنا محكمة الحقائق.

تتألف هذه المحكمة من القاضي. المتهم. والشاكي. والشهود.

القاضي: الوجدان

الشاكي: الضمير

المتهم: أنا

الشهود: جوارح وجوانح.

يسألني القاضي. وقد وقفت أمامه بذل وانكسار، بينما يقف

خصمي بجلال ووقار. ما اسمك؟ أنا سيد محمد بن سيد جمال الهاشمي النجفي، أحد طلاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

القاضي: اعرض شخصك بصراحة دون لبس والتواء.

أنا: عرضت ذلك بحقيقته، إذ لا داعي لي في الاختفاء.

القاضي: إذًا؛ أنت لا تفهم ذاتك، إن اسمك الذي أطلقته على نفسك ليس عنوانك الصحيح، إن عنوانك الصحيح هو الذي يلازمك في كل زمان ومكان، بينما عنوانك الذي تُسمى به من مخترعات والدك، استحبه في ساعة من ساعات أيامه فأطلقه عليك، كما إن والدك لم يكن إلا آلة صماء في خلقك، لا تتمكن من التقديم أو التأخير في تاريخ وجودك، بينما الأب هو الخالق الذي يتصرف في تاريخ الإيجاد كيفما يشاء، أما موطنك فإنه مثل أبيك، وعنواك مزيف أيضاً، فإن وجودك ساعة الميلاد في النجف كان بنحو من المصادفة، ولو فرض أن أمك كانت ساعة ميلادك في الجزائر لكنت جزائرياً لا نجفياً، بينما الوطن هو الذي لا يتمكن ساكنه من الانتقال عنه.

أما ادعاؤك طلب العلم فهي دعوى مضحكة، فإن الدعوى لابد وأن تظهر بملابسات تعتمد عليها بينما دعواك فارغة من كل الملابسات، إن طلب العلم له مميزات ومشخصات تفقدها كلها، ولذلك كانت دعواك هذه أفرغ من دعوى العنوان والوطن.

أنا: فمن أنا يا سيادة القاضي؟ عرفني نفسي، فإن رهبة المحكمة أنستني حتى نفسي.

القاضي: أنا أيضاً متحيّر في حقيقتك الملتوية، إنّ كلّ ما تحمله مستعار زائف، إن قسمات وجهك وخصائص وجودك، وعناوينك الشخصية والاجتماعية كلها طلاء يزول بمرور العمر كما يزول طلاء الجدار بمرور الزمان، فأنت والجدار في زيف الصورة سواء، وربما كان يمكنني أن أنسبك إلى الزمان لو كان الزمان باقيا، لكنه يزول كما تزول مشخصاتك، فأنت من أنت؟ وما أنت؟ دعني أتذكرك، فإن التذكر يرشد التفكر، أنت عبد الشهوة، والشهوة مملوكة الغريزة، والغريزة تديرها الحياة، والحياة تبعثها الروح الخالدة، والروح تختص بالله، فأنت أنت عبد الله بموجب هذا التسلسل، وربما كنت مخطئاً في عرضي لك، فإن من ينتمي الى الله بالعبودية لابد وأن تكون فيه سمات العبد،

وأنت تتبنى الحرية في كل شيء، ولذلك تراني متردداً في نسبتك إلى الله بالعبودية، ولكن لا مناص من تعريفك بهذه النسبة.

وربما أمكنني أن أعرض صورتك على نفسك بإطار آخر، أنت تمتاز عن غيرك من العناصر بالإرادة والاختيار، فكل ما في الكون يجري الى مستقره ومستودعه بلا أن يكون له في جريانه قصد ولا إرادة أبداً، بينما تجري أنت إلى ما تريد وكما تريد، فأنت تمتاز عن غيرك بخصوصية الاختيار، والذي يميزه الاختيار عن غيره يسمى بالإنسان، فأنت إنسان لا غير، إن الإطارين يعرضان صورتك الحقيقية للناظر، فهما يلازمانك في كل أدوار حياتك؛ يلازمانك ساعة ميلادك، ويلازمانك ساعة موتك، يلازمانك مهما اختلفت بك الأزمنة والأمكنة، ومهما تباينت فيك الأزياء والصور، فأنت عبد الله في كل فصول حياتك، وأنت إنسان في كل أدوار عمرك. فإذا عرفت ذاتك فهلم معي وأجب على دعوى خصمك بوضوح وبيان:

يدعي هذا الواقف أمامك بأنك خنته ولا زلت تخونه في كل حكم وموضوع، فهو كما يقول: شريكك في رأس المال الذي تتاجر به في حياتك، وقد انفردت بالتصرف فيه تعمل به ما

تشاء كأنه لك وحدك لا شريك لك، بينما هو يشاركك في كل بضاعة تعرضها حياتك.

أنا: مولاي القاضي إني لا أعرف هذا الخصم الشاكي، ولم أره في طيلة أيام حياتي حتى أحسبه شريكي في مكاسبي!

الضمير: . وهو يتوجه إليّ . أنت لا تعرفني؟ أنت لم ترني؟ سجّلي اعترافه أيتها المحكمة العادلة لكيلا ينكره كما أنكرني.

القاضي. للضمير: هل لك بينة تثبت شركتك مع هذا الخصم المنكر؟

الضمير: اسمح لي يا سيادة القاضي لأعرّفه بنفسي أولاً، ثم أقيم لك البينات المشرقة، [يتوجه الضمير إليّ وقد توترت عروق وجهي واحمرت، وكأنها تريد أن تقذفني بدمائها الثائرة]، إني أعرّفك بنفسي في أيام لا تنساها.. أتذكر يوم تسابقت فيه والأستاذ... في موضوع شعري اقترحته لجنة من أصدقائك، وقد سبقك في الإجادة والإبداع، بيد أن اللجنة راعت صداقتك معها، فأرادت أن تعطي حكمها في جانبك، وأنت تعلم أن اللجنة تخون الفن والحق في حكمها لك، وأرادت نفسُك منك أن تترك

اللجنة وعملها الخائن لولا أن رأيتني أعرض عليك نتيجة الحق وأنك ستهدم كياناً إنسانياً عاماً لمصلحتك الشخصية، فأطعتني وطلبت من صديقك ألا يخالف الحق والفن في حكمه، وكان لعملك صداه الرداد في المجتمعات الأدبية والإنسانية؟

وأتذكر أيضاً يوم حاولت أن تخون الأمانة التي استودعها عندك صديقك... تخونها وتدعي ضياعها أو سرقتها، وكنت تعلم أن تلك الأمانة كل ما يملكه الصديق المعهود، فإذا هضمتها فقد هدمت حياته وحياة عائلته الكبيرة، وهناك صوّرت لك النتيجة المترقبة منك ومن صديقك، فرأيت نفسك لصاً حقيراً يسرق مال صديقه العزيز، ورأيت أعزّ أصدقائك في حالة بائسة يائسة، أنت كنت السبب فيها، فخجلت مني، واستحقرت نفسك، وتركت ما كنت مقدماً عليه؟

هاتان صورتان من مئات الصور أقدمها لك كشاهدَي تعريف لعلاقتنا، فاذا اكتفيت بهما، وإلا فسأقيم لك معرضاً يعج بالصور المثيرة لحياتك المشرفة.

أنا: عفواً يا أخي إني تذكرتك، فأنت ذلك الأخ المساعد

لأخيه في عشرات المواقف الفاشلة، وإني حين أنكرتك كنت مسحوراً بهذه المحكمة الرهيبة، وبقاضيها الجبار.

الشهود: العين تقول للذاكرة سجلي ما أرسله إليك من حوادث هذا اليوم الرهيب.

الضمير: ـ إلى القاضي ـ أسمعت كيف أصبحت أخاه المساعد بعد ما كنت غريباً عنه لم يرني طيلة أيامه وأعوامه، ألمست الإقرار بعد الإنكار، لكني أستميح المحكمة أن تتناسى هذه الجريمة فلا تسجلها عليه؛ لأن الارتباك يبدو لنا من كل حركاته وسكناته.

القاضي: ـ وهو يلتفت إلى الضمير بغضب ـ ليس لك أن تنفي أو تثبت شيئاً من الأحكام، إن ذلك من شؤون المحكمة، إن الإقرار بعد الإنكار جريمة قانونية لها غرامتها وجزاؤها.

الشهود: القلب يهمس للدماغ: هذا ما كنت أحذَرُه منك في الحياة، إنك بقياساتك الباطلة حطمت أحاسيسي وعواطفي، وأوقفت صاحبنا هذا الموقف المخزي.

أنـا: مـا أنـا أيهـا القاضـي إلا بشـر كالنـاس أتأثـر بالمناظـر، وإن مشـاهد هـذه المحكمـة التـي تكشـف السـرائر وتهتـك الأسـرار، إنهـا أروع محكمـة تقيمهـا الإنسـانية علـى هـذه الأرض، إن مـا تتركـه شـخصية القاضـي فـي نفـس المتهـم يكفـي لأن تزلـزل كيانـه وتهـد قـواه، ولذلـك تراني ذاهـلاً حتـى عـن شـخصي المعلـوم المجهـول، إن مـا لمسـته ذاتي مـن ذاتي فـي هـذا اليـوم يكفـي لأن يغيـر نظرتـي إلـى ذاتي ثـم إلـى العالـم، إنني ولـدت مـن جديـد، وهـل يعاقـب ابـن يومـه علـى هفـوة أو زلـة أو إثـم؟ إننـي معـذور فـي أقوالـي وأعمالـي لأنهـا تصـدر منـي دون أن تكـون لـي فيهـا إرادة ولا اختيـار.

القاضـي: هـب أنّـا عفونـا عـن هـذه الجريمـة، وتناسـينا إقـرارك بعـد إنـكارك، فمـاذا تقـول فـي دعـوى هـذا الواقـف أمامـك؟

أنـا: لـم أعـرف دعـواه بعـد، وكل مـا اسـتفدته مـن موقفـي هـذا اليـوم أنـه يدعـي مشـاركته لـي فـي شـؤون الحيـاة، ولا أدري عـن أي شـأن مـن شـؤون حياتـي يتحـدث؟ أيقصـد بهـا شـؤوني الاجتماعيـة التـي جاهـدت وحـدي فـي تحقيقهـا، وغامـرت بأيامـي وأعوامـي حتـى وصلـت إلـى مـا وصلـت إليـه؟ أم يقصـد بهـا شـؤوني الماليـة؟ إننـي يـا سـيادة القاضـي أشـكر الله علـى أنـي لا أملـك مـن حطـام الدنيـا

أكثر من القوت اللازم، وحتى قوتي اللازم لا يتأتّى لي إلا بالدَّين والاستعارة. أم يقصد بها شؤوني المنزلية؟ هل سمعت بإنسان يتخذ شريكا له في زوجته وأولاده؟ إنني متحير في دعواه، ولذلك أرجو من المحكمة أن تطلب منه بأن يوضح لي هذه الشركة وجهاتها فعسى أن أتذكرها.

القاضي: ـ للضمير ـ لا مانع لدى المحكمة من توضيح غموض دعواك للمتهم.

الضمير: إني أشكر المحكمة على موقفها المشرف من هذه الدعوى الملتوية، ومن هذا الخصم الذاهل، إنني أعرض شركتي وحدودها لهذا الخصم، فعسى أن يفيء إلى الحق، ويذعن للعدالة الإنسانية، ويرجع لي الحقوق المهضومة. [وهنا يلتفت الضمير إليّ ويخاطبني بلهجة ساحرة]: قل لي يا صاحبي من أين تكوّن وجودك الإنساني؟ وبماذا تتميز عن غيرك من الناس؟ وأعتقد بأنك ستجيبني بأن لك سمات خاصة تميزك عن غيرك بعينيك وأنفك ووجهك، وطولك وعرضك، وسائر الآثار البارزة في بدنك، وفكرك وقلبك وشعورك وإحساسك وسائر الآثار الخفية في وجودك... فهي التي تميزك عن غيرك وتجعلك

تعيش في دنيا خاصة بك، وهنا أسألك: هل لقلبك كما لعينك ولفكرك وكما لسمعك دعوات واستجابات؟ وهل للقلب آفاق خاصة يعيش فيها؟ أعتقد بأنك لا تستطيع تجاهل تلك الآفاق والحدود، فإنه كما تتألم الحواس الظاهرة فيك من مشاهد ومناظر خارجية تحس بها وبما فيها من الصور المشجعة، كذلك القلب يرتاح ويتألم من المشاهد والمناظر التي تعرضها عليك دنياه في حدودها وآفاقها، وهنا أستفسر منك بأنك هل تدري بماذا يرتاح القلب ويتألم؟ ومَن الذي يريحه ويؤلمه؟ فيريح الخواطر والذكريات ويؤلمها؟ أعتقد بأنك لو راجعت مذكرات حياتك لتعرفت عليه، إن من يزعج القلب ويؤنس الخواطر هو أنا أيها الأخ العاق، إنك إن استجبت لإيحائي وسرت في الطريق التي أوجهك إليها تعيش وأنت مرتاح القلب والخواطر، وان عاكستني في توجيهي تعيش منزعج القلب والخواطر وكأنك مجرم ينتظر السجن والعقاب. فهل عرفتني وعرفت حدود شركتي أيها الأخ العاق والشريك الخائن، وهل آمنت بأني أشاطرك حياتك في كل مكان وزمان.

وهنا يلتفت الضمير إلى القاضي ويقول: كفاني تعريفاً

لنفسي... ولأتوجه إليكم بدعواي وأطلب منكم تحقيق العدالة الإنسانية، أطلبها وأنا أعتقد بأن المحكمة قادرة على تحقيقها. سيدي القاضي: إن هذا الواقف أمامك قد خانني، وغصب حقوقي، وأنكر وجودي، فهو (وأنا شريكه في رأس مال حياته) يعيش وكأنني غير موجود معه، فهو ينكرني في البيت، فيأمر وينهى ويعتدي ويستسلم ويغضب ويرضى بلا أن يلتفت إليّ وإلى تحذيري، وهو في السوق يغش ويزيف ويطفف مكاييله وموازينه، وهو في المجتمعات يتظاهر بحب الإنسانية، وبصحبة الضمير (أي بصحبتي أنا)، ويهتف بسقوط الظلم وبحياة العدالة، بينما هو يعادي العدالة في أعماله وآرائه ، ويتبع الظلم في تصرفاته وأحكامه، إنه بعيد عني في كل شيء، ظالم لكل أحد حتى لأهله وأولاده، وهنا يرتفع صوته حتى يصل إلى حد الصراخ، ويستمر في خطابه للقاضي بتلك اللهجة الصارخة وقد مزجها بالنشيج: أنصفني يا سيادة القاضي، وخذ حقي من هذا الظالم القاسي، فقد لاقيت منه ما لا يصبر عليه حتى الجماد، أنصفني وأرجع لي حقوقي المغصوبة.

الشهود: يلتفت كل عضو إلى آخر بأنه صادق في كل دعاواه.

القاضي: ما جوابك على هذه الدعاوى؟

أنا: سكوت. وانكسار. وخشوع ممزوج ببكاء.

القاضي: أجب على أسئلة المحكمة وإلا فسأنفّذ فيك أحكام القانون حرفيا.

أنا: صمت، نشيج يرتفع رويداً رويداً حتى يغمر المحكمة.

القاضي: وهو يلتفت إلى الأعضاء: إن جلستنا تنقلب سرية لنتشاور في الحكم على هذه الدعوى المستغربة وتختم الجلسة.

بعد مرور ثلاث ساعات على المشاورة أعيدت جلسة المحاكمة كما كانت بأعضائها وشهودها، وافتتح الجلسة سيادة القاضي بقوله: إنكَ أيها المتهم مصاب بداء وبيل صعب العلاج، وإن جريمتك ترجع أسبابها إلى الأدواء المتغلغلة في وجودك، ولذلك قبل أن نطبق عليك أحكام مادة هذه الجريمة قررنا أن نعرضك على الطبيب الأخصائي بهذا اللون من المرض، وطبعا يكون قراره بعد إجراء الفحوص والتجارب الطبية عليك. نعم؛ إن توافق قرارنا وقراره نكتفي بعلاجك حسبما يراه الطبيب

المعالج، وإن وجد أنَّ الباعث على الجريمة هو حب الإجرام الناشئ عن الشذوذ الطبيعي في أمثالك من نوادر البشر، فإن لك أحكاماً خاصة نجريها عليك، وان كان الباعث هو سوء التربية الراجع إلى المحيط والبيئة، فان لك أحكاماً خاصة أيضاً نطبقها عليك.

وهكذا ساقتني المحكمة إلى عيادة طبيب نفساني راح يجري عليّ تجاربه وفحوصه، ثم قرر رأيه في مرضي، وأنه ناشئ من سوء التربية الناشئ من فساد المحيط والبيئة، ولما عُدت إلى المحكمة مشفوعاً بقرار الطبيب التفت إليّ القاضي وقال لي: إنك مريض بالعدوى، إن الجو الذي كنت تعيش فيه كان متسماً بالأهواء، ولما كنت قد تنفست فيه راحت سمومه الفتاكة تنفذ إلى طبيعتك السليمة فتسممها، ولذلك يلزمنا أن نخرج السم منها، وإن عملية إخراج السم وإن كانت قبلئذ تجري بمشقة مزعجة، ولكن العلم قد سهل صعوبتها بوسائله الجديدة، وأول ما يجب عليك القيام به هو الهرب من نفسك المسمومة، لئلا تتأثر بها سائر أنحاء وجودك، إن النفس الإنسانية، تتأثر بالمحيط الذي تعيش فيه بسهولة، وقد تأثرت نفسك بجو

حياتك فنفذ السم إليها شيئاً فشيئاً حتى غمرها، فهي الآن كتلة من السم يتأثر به كل من يدنو إليها فعليك أن تفر منها.

أنا: كيف أفر يا سيدي القاضي من نفسي؟ وإلى أين أفر؟ وهل لي مجال أعيش فيه وحدي من دون نفسي؟

القاضي: وقد ارتاح من سؤالي: نعم يمكنك أن تفر من نفسك وتعيش إنساناً لا نفس له، أما المهرب الذي تفر إليه هو الله، وقد دلك إليه القرآن الكريم بقوله: <فَفِرُّوا إِلَى الله>(١)، إن الله هو الملجأ الوحيد الذي يمكنك أن تعيش فيه بلا أن تزاحمك النفس بوساوسها وأهوائها.

أنا: كيف أفر إلى الله؟ أرشدني إلى وسيلة تُمكّنني من الفرار من نفسي إلى الله.

القاضي: إن الفرار من النفس لا يتحقق إلا بموت النفس، وموتها بقطع وسائل الحياة عنها، ومواد حياتك تنفيذ أهوائها وإطاعة أوامرها، خالفها في أهوائها، واستمر على المخالفة حتى تضعف طاقتها وتضعف إلى أن تفنى، ومخالفتها لا يمكن إلا

١. الذاريات: ٥٠

بعد أن ترفع عن بصيرتك غشاوة الجهل بنور العلم، فإن العلم يرشدك إلى طريق الفرار بأضوائه الهادية المنبعثة من مؤلفات العلماء وأحاديثهم، إن العلم أقوى من الهوى، لأنه يسير في النهار المشرق، والهوى يتخبط في الليل الحالك، والنور يبدد الظلمة، فالعلم أقوى من الهوى، فإذا تمكنت من هوى النفس فكبحته فقد تمكنت من نفسك لأنها لا تعيش إلا به، فإذا قطعت مادة حياتها عنها فقد أفنيتها، ومتى أفنيتها فررت إلى الله الذي سيعصمك بظله عن الحوادث، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

أنا: يا سيادة القاضي هيئ لي وسائل الفرار إلى الله والاعتصام به لكي أتخلص مما أنا فيه، وسوف أبقى أذكرك بالشكر ما بقيت حيا.

القاضي: إن محكمتنا قد هيأت لك تلك الوسيلة، فقد صدر قرارها بإحالتك إلى مدرسة الأحداث، لتربيك بوسائلها الصالحة الصحيحة.

أنا: كيف أنتمي إلى مدرسة الأحداث وأنا قد تجاوزت

الأربعين، من عمر.

القاضي: إنك لم تزل طفلا حدثاً بالرغم من مرور هذه الأربعين، إنك طفل في ملكاتك وغرائزك، ورُب طفل وهو شيخ كبير في آرائه وأفكاره، إنك طفل حدث جداً، ولذلك نحيلك إلى مدرسة الأحداث نختم جلستنا.

الشهود: - بعض لبعض - كنا ننتظر عقاباً أقسى من هذا الحكم، ولكن المحكمة أبصر بأعمالها من غيرها.

«وهنا قال: هيا بنا فقد طال الحديث، وهكذا خرجنا من البلد لنستقبل الصحراء، خرجت معه وأنا مراقب أقوالي وأعمالي لئلا تزل، فيكرر هجومه عليّ، فيتأخر سفرنا الوجداني، سرنا خطوات ربما لا تتجاوز العشرة، وإذا به يقف ويواجهني بهذا السؤال، قل لي: إلى أين تريد أن تتوجه بسفرك هذا؟ وإلى أي بلدة تريد مني أن أسافر بك؟ لأنك كما تدعي رجل رشيد في أقوالك وآرائك. وحقيقة كانت مفاجأة منه لي لم أتوقعها منه في تلك الساعة، وعلى مثل تلك الحالة التي أنا فيها، ولكنني تماسكت وأجبته: بأن المدرسة أرسلتني لأطبق درساً عملياً لابد

لي من تطبيقه، وأن المدرسة لم تذكر لي الجهة المقصودة، كما لم تقف بي على الغاية المنشودة، وكل ما هناك أني تلميذ في مدرسة تسير وفق برنامج معين، فلها أن توجهني وعليّ أن أطيعها بعد استفسار عن الجهة أو الغاية، بعد ما اطمأنت نفسي بسيرها وغايتها، فقال لي: إذًا؛ أنت آلة صماء في هذا المعمل الذي تسميه المدرسة، لا تقدم ولا تؤخر من نفسك لنفسك شيئاً، ومن الغريب أني أرضى بمصاحبة هيكل فارغ لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عن نفسه ضراً، فلي العذر إذا فارقتك فإني لا أفارق إلا صنما أصما، وتمثالاً جامداً، وإني لا أحب مصاحبة الأصنام والتماثيل، قلت له: أولست أنت مثلي أيضاً آلة تديرها أجهزة المدرسة بلا أن يكون لك اختيار من نفسك لنفسك في هذا الدوران. فقال لي: وقد حضره الغضب المخيف. لا؛ أنا مالك نفسي أوجهها كما أشاء، لي حريتي في كل شيء، وقد قبلت الانتماء باختياري إلى هذه المؤسسة، ومتى رأيتها لا تلائم وضعي أسحب انتمائي منها بكل حرية واختيار، كما أن الرحلات التي تكلفني بها المدرسة أو الدروس التي ألقيها فيها، فإن لي الحرية الكاملة في قبولها أو رفضها، فليس للمدرسة ولا لرجالها القائمين بشؤونها إجباري على أي شيء فيها، فقد خلقني الله حراً لأتمتع

بحريتي كما تشاء الحرية، وقد رأيت مني الازورار من الرحلة، كما رأيت منهم الطلب الضارع والسؤال المنكسر، فهم يلتمسون مني الدرس، وأنا أمنحهم ما أمنحهم منها جوداً وتفضلاً. فقلت له. وقد أزعجتني هذه الكبرياء، وآلمني ذلك الترفع.: ألست موظفاً في هذه المؤسسة تتقاضى راتبك منها؟! وألست مستأجراً للقيام بهذه الدروس والرحلات تأخذ أجرتك عليها؟! وأين الحرية من الموظف والمستأجر؟! فهما مستخدمان يقومان بالعمل الذي تبتغيه منهما الوظيفة والإجارة، فبأي حرية تتغنى أيها الموظف الأجير؟! وهنا ابتسم في وجهي وقال: إن فهمك محدود جداً، فأنت لا تدرك إلا الظواهر، ولذلك تنفي الحرية عن الموظف والأجير، ولو كنت ممن درس فوعى بأن المتمكن من السبب متمكن من المسبب لما جابهتني بهذا المنطق الضعيف، وهنا أسألك: هل أنا حر في قبول هذه الوظيفة أوردها؟ أو أنا مجبر على قبولها بحيث لا أستطيع ردها عن نفسي! قلت له: نعم؛ أنت مختار في القبول أو الرد، فقال لي: إن المختار في الوظيفة مختار في القيام بشؤونها أيضاً، فهو متمكن من ترك تلك الشؤون باستقالته من الوظيفة، لأن المتمكن من السبب متمكن من المسبب، قلت له: ولكنك بعد قبولك الوظيفة أصبحت حريتك

الأولى مقيدة بالوظيفة، فأنت مجبور على القيام بما تريد، كما أن الإنسان لا يمكنه أن يمنع المسبب بعدما أوجد السبب، فهو قد كان حراً قبل إيجاد السبب، أما بعد إيجاده فإن المسبب يوجد بالرغم منه أراد صاحبه أم لم يرده، فليس لصاحبه بعد إيجاد السبب اختيار أبداً. قال لي. وقد أخذته حدة في الكلام مخيفة . قلت لك: إن المتمكن من السبب متمكن من المسبب، وإن فقد هذا المتمكن الاختيار بعد إيجاد السبب، لكنه بما أن وجود السبب وعدمه بيده، ووجود المسبب وعدمه بوجود السبب، فتمكنه من السبب يلازم تمكنه من المسبب، وأطلب منك أن تتأمل في كلامي لتفهم مرامي، وإلا فإن الاسترسال في هذا النقاش لا يوصلنا إلى غاية ونهاية، فأنت يا رفيق سفري حر في قبول هذا السفر؛ لأنك حر في الانتماء إلى المدرسة، وأنا أيضاً حر في مصاحبتك لأني حر في قبول التدريس فيها، فلا تنفي عن نفسك حرية تفضل بها عليك المنعم العظيم، وإذا كنت حراً في عملك كان عليك أن تعي عملك وتتوصل إلى الغرض المنشود منه، وإلا فستطلب مجهولاً لا تفهمه، وتسير إلى جهة لا غرض لك فيها، وطالب المجهول مذموم عند العقلاء، فعليك أن تعي غرضك من سفرك، كما عليك أن تعرف مقصدك

منه، وأعتقد بأني قرّبتك من الغرض لو تأملت قليلاً، فأنت قد دخلت هذه المدرسة لغرض معيّن في نفسك، وأنت هضمت دروسها لنفس الغرض، وأنت تتوجه في سفرك هذا لتحصّل ذلك الغرض، فوجهتك الغرض المنشود، فإذًا أنت لا تطلب مجهولاً كما تتصور، ولا تسير إلى جهة غير معلومة كما تقول، فقلت له .وقد أطربني بيانه وتحقيقه .: نعم يا سيدي الأستاذ كما قلت، أنا أسير إلى جهة خاصة كما أطلب غرضا معيناً، وهو تكميل النفس، وتحصيل الإنسانية الصحيحة، ولهذه الغاية أتحمل ما أتحمل من المشاق والآلام. أما الدروس الفكرية والعملية فإن غموضها أمر طبيعي للتلميذ، وإلاّ فلو كانت واضحة لما لزمه احتمال مشقة التعليم. أما أنت أيها الأستاذ القدير والمرشد الخبير فإن عملك رأس مالك في الحياة، فأنت عالم بمبدأ السير ومنتهاه، وبالطرق التي نجتازها في سفرنا الوجداني، لكنما فيك خشونة تتعب السالك، وغموض يبعث الحيرة في سلوك التلميذ ومعاملته معك، فازوراري عنك مرة، واحتمالي خشونة أخلاقك مرة أخرى، منشأهما سماحي من ناحية، وجهلي بأخلاقك وسيرك الاجتماعي من ناحية أخرى، فلك العذر على وضعك لأنك تطبعت عليه، ولي العذر على وضعي لأنني جاهل

بك وبأخلاقك، وأردت أن أسترسل في خطابي وإذا به يضع يده على فمي، ويرجع الجمل والمفردات المتزاحمة في مخارج الحروف إلى مواطنها ويقول لي: أظنك حسبت نفسك الأستاذ (الأخفش) النحوي المشهور، وحسبتني (كبشه) المعروف، ولذلك رحت تغمرني بسيل خطابك الجارف، والحق يقال إنه جارف، فقد كدتُ أنحرف مع بيانك وأحلق في آفاقك الساحرة، ولكنني أمسكت نفسي وأكبرت منزلتي أن تجاري منزلتك، فأنت تستمد منطقك من الجهل المترائي بالعلم، وأنا استوحي خطابي من سماوات الحقائق ومناطق الشهود، أنت تردد خطابك كالببغاء يلقنها صاحبها الكلام، وأنا استنزل المعاني من مصادرها، ألتقطها وأنا عالم بأسرارها وحقائقها، ولذلك يلزمك أن تقتضب كلامك وتختزنه لمواضع الحاجة، ولا أظنك تحتاج إليه في هذه العجالة، أنت تحتاج إلى الصمت أكثر من احتياجك إلى الكلام، والصمت لأمثالك ذهب إبريز؛ بل هو جوهر ثمين، عليك أن تحفظه من الضياع، وبالكلام تضيع طبيعته، فيصبح التبر ترابا والجوهر حصباء، قلت له: سيدي الأستاذ أنا راض بالذي تفرضه عليّ، فعليك الأمر، وعلي الإطاعة، وإنما أرجو من فضلك أن تسرع بنا لئلا نتأخر في السير، قال لي:

إنك كما قلت لا تفهم ما تقول، فأنت تناقض نفسك بنفسك، إن الرضا والإطاعة يتنافيان من رجائك مني بسرعة السير، فرجاؤك معناه طلب الإطاعة مني لك، بينما أنت في مقام الإطاعة لي، ولفهم هذه الحقيقة لابد لنا من فهم معنى الرضا.

إن الرضا مقام عظيم يجتازه الإنسان في سيره الوجداني، فالراضي بالشيء مرتاح الضمير، فارغ البال، يعيش ولا يهمه ما ينزل في الأرض أو يصعد إلى السماء، فهو راض بحياته، سعيد بعيشه، وإن الرضا بالحياة لا يحصل حتى تملأ حياته كل فراغ في وجوده.

وإن السعادة بالعيش لا تتأتى إلا بامتلاء عالم أحلامه، وإلا فإن وجد فراغا في الحياة لَاجتهد وسعى صاحبه لإشغاله، ولو بقي له حلم واحد لم يتحقق لأوصل ليله بنهاره حتى يحققه، فالرضا حالة قدسية لا تتحقق إلا لمن فهم الحياة ووعى حقيقتها الغامضة، إن للحياة آماداً واسعة لا يجتازها السالك إلا بأجنحة الإيمان بالله، ومعنى ذلك أن على الإنسان أن يفهم مقامه من عوالم التكوين، وموقفه من آفاق الوجود، إنه لو قاس نفسه بهذه العوالم أو تلك الآفاق لكان أضأل من قطرة تقاس بالمحيط

الواسع، وأصغر من ذرة تقرن بالجبل الشاهق، أقول إنه أضأل وأصغر من القطرة والذرة وأنا أعني ما أقول، فإن البحر يتكون من قطرات، والطود يتقوم من الذرات، أما العالم فوجوده لا يحتاج إلى الإنسان أبداً، فلو فرضنا أنه انعدم منه العنصر الذي يعيش به الإنسان، فانعدم منه هذا الحيوان الشقي المسمى بالإنسان، لما نقص من العالم شيء أبداً؛ بل يبقى الكون وما فيه على حاله، وتبقى أجهزته وأفلاكه تدور وتسير من غير أن يحدث فيها فقد الإنسان أي نقص أو قصور في الجهاز أو السير، فوجود الإنسان في هذا العالم كعدمه لا يؤخر ولا يقدم من العالم شيئاً أبداً، ولذلك صار أضأل من القطرة وأصغر من الذرة، فإذا كان مقامك أيها الإنسان من العالم يقع في هذا الجزء الحقير الضئيل فيه، فكيف تروم أن تحيط به وتُلمّ بكل ما فيه.

إن محاولاتك هذه أسخف من محاولة نملة صغيرة تريد أن تنقل طوداً من جهة إلى جهة أخرى، فهي تتعب نفسها في نقل ذرات صغيرة منه حتى تتلاشى وتبيد ويبقى الطود على حالته كما كان لم ينقص منه شيء أبداً، ولذلك ينبغي للعاقل أن يدرب نفسه على القناعة بما يجود به نظام التكوين، ويتلطف

عليه فيه المدبر الحكيم، وأعتقد بأنه لو وعى حقيقة نفسه ومقامه وحقيقة الكون ومقام مدبره العظيم لاحتفل بكل ما تنعم عليه به هذه العظمة الجبارة، فالتفات مثلها لمثله نعمة لايحيط بها شكر، والذي يبلغ سيره الوجداني هذه المرحلة يتأهب لأن تتساوى عنده الحالات، لأنها أحكام تنزل من مقام العظمة المقدسة، فهي التي تريد سروره، وهي التي تريد حزنه، وهي التي تريد راحته، وهي التي تريد مشقته، فإذا كانت الحالات كلها منها، يلزمه أن تتساوى حالاته أيضاً تجاهها؛ حيث إنها متساوية في نظر القضاء، وتساويها يفرض عليه أن تتساوى حالاته في كل تلك الأحوال، ولاشك بأن البلوغ إلى هذه المرتبة أصعب من الصعب، فإن الألم يوجع ويبيد الأعصاب، فكيف يمكننا أن نجعله في منزلة الفرح الذي ينعش الأعصاب، وينشط الروح، ولكن علماء الأخلاق يقولون: بأن من يعي هذه الحقيقة تصبح حالاته متساوية، لا يمتاز ربحه عن خسارته، ولا نجاحه عن سقوطه، ولا مرضه عن صحته؛ لانه وعى أن الباعث والمدبر لهذه الحالات واحد لا شريك له، فإيجاد النجاح في جهاده لا يقصر عن إيجاد السقوط، وبعث المرض في بدنه لا يزيد عن بعث الصحة، وهكذا... وبما أنه لا يريد من عبده إلا تكميل نفسه، لأنه

خلقه للمعرفة المساوية للكمال، فالحالات التي تتوارد عليه إنما هي مقامات يجتازها الإنسان إلى مرتبة الكمال، فعليه أن لا يفرق بينها ابداً، لأنها لا تختلف درجاتها في نظر المدبر القدير ولا قيد شعرة، ولا شك أن الإنسان إذا بلغ هذه المنزلة فرضي بما يرضى به الله أصبحت نفسه مخاطبة بقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[1].

وهنا أسرع الأستاذ في سيره فأسرعت أعدو خلفه بشدة لأصل إليه، وهيهات أن أصل إليه، فكأنه استعار من الزوابع نشاطها، ومن النور حركته، فهو يسير بقوة خارقة وأنا أتعثر في آثاره المنطبعة على الرمال، بينما كان في شخصه غائباً عن نظري. ما هذا النشاط؟! وما تلك القوة الجبارة؟ إني حائر في أمر هذا الشيخ المدهش، وسرت طويلاً حتى رأيته وقد اعتزل الطريق، وجلس يراقب السماء وكأنه شاعر يستعرض فيها آثارها الرائعة، أو كأنه نبي يستنزل منها الوحي والإلهام، ولما وصلت إليه لم يلتفت إليّ، فهو مشغول عني بنفسه وبسمائه، وأحسبه لم يرد تحيتي التي وجهتها إليه بأسلوب ملفت للنظر، ورأيت

---

١. الفجر: ٢٧ ـ ٢٨.

من المناسب أن أتركه وحالته الحالمة، لئلا أشغله عن لذته ومتعته، فإن الفيلسوف يجد لذته في الاعتزال عن الناس، وها هو يعتزل حتى عن نفسه ومقصده ليأخذ خطته من هذه الوحدة الملذة في صحراء ساحرة المشاهد، وأعتقد بأنه وجد في الصحراء ما يجده القس في صومعته، والعابد في محرابه، والفنان في مرسمه، والمخترع في مختبره، فهو مشغول به عن غيره، وقد سرت منه إلى تلك السكرة الروحية فإذا بي أهيم في أخيلة لا مد لها، ولولا صرخته التي أرجعتني إلى نفسي لهمت في أودية لا نهاية لها من الأحلام، قال لي وهو يبستم: ما بالك تنظرني بذهول ونبهات؟ فهل رأيت مني ما يستوجب هذا التفكير العميق؟ أو أن التعب أثر في أعصابك فتركك هامداً بلا حركة ولا شعور، أو أنك انجذبت إلى الآفاق التي جذبتني مفاتنها، فرحت التقط منها روائع الخلود؟ وأعتقد بأنك لست من الفريق الثالث؛ لأنك لم تصل بعد الى مرتبة تتكشف عن بصيرتك الحجب لترى ما لا تراه العين المجردة، قلت له: إن حالتك الذاهلة ووصفك المعجب، هو الذي أشغلني عنك، فانا كما قيل مشغول بك عنك أراك تحلم يقظانا بأمور لا تصل إليها أحلامك وأنت نائم وكأنك تلتقط الروائع الخالدة من وراء

الحجب، وليتني شاركتك هذه اللذة التي لأجلها ضحيت ما ضحيت من لذائذ الحياة، ومتع الدنيا الساحرة. نعم؛ شغلتني حالتك فرحت أهيم في أوضاعها، وتجاوزتها إلى حالاتي التي تعاودني في أدوار دراساتي المبهمة، ولقد أذهلتني هذه العوالم حتى لم أسمعك وأنت تهتف باسمي، ولم التفت إليك وأنت تحاول لفت نظري إليك، واعتقد بأنّ العذر الذي قدمته إليك يكفي لاستحصال رضاك وعفوك.

قال لي: إنك معذور من أول الأمر في كل ما صدر منك، ولكنني لا أرى لنفسي عذراً في كل ما تفعله أنت، فإن المدرسة كلفتني بك، والتكليف هو إلقاء المسؤولية عليّ، فأنا مسؤول عن أعمالك وأقوالك، ولذلك تراني أضغط عليك وأتحامل على سيرك، لأني أشعر بثقل المسؤولية.

والآن أسرع بنا فقد فات علينا الوقت، وراح يجاريني في السير، وأعتقد بأنه كان يراقب وضعي ويراقب فكري أيضاً، وقديماً كانت الفراسة تقرأ الضمائر من الوجوه، فهل يقرأ ضميري من وجهي؟ ألله علم بالضمائر من غير طريق الفراسة؟ إني أحس بمراقبته لي، وأشعر بأن عينه تجول في كل أفق من وجودي، لِأكن

حتى في فكري على حذر من هذه العين السحرية، وهكذا سرنا والصمت يغمرنا حتى وصلنا إلى بحيرة قطعت علينا الطريق، فكان علينا أن نعبرها، وهنا كانت المشكلة، فليس فيها قارب نستقله، ولا جسر نعبر عليه، وهنا قال لي رفيقي: أرح نفسك قليلا على ضفاف هذه البحيرة الساحرة، ومتع بصرك وفكرك بأمواجها الرائعة، وهكذا جلسنا على شاطئها الماتع، وسألني: هل لك قابلية العبور إلى الشاطئ الآخر؟ قلت له: إني لا أجيد السباحة، ولكنني لا أطمئن من قواي فإن عرض البحيرة يزيد على نصف كيلومتر، وهي مسافة طويلة، ولا سيما والماء ساكن راكد، والأمواج رقيقة لا تساعد السابح على العبور، قال لي: إذًا؛ أنت لا تطمئن من نفسك، ولا تعتمد على فنك، وإنما تستند على قوة الموج ودفعه لك، وما أضعف من يعتمد على الموج ويتوكل على التيار، وهما كما يعلم الجميع مسخران بقوة أخرى تدفعهما يميناً وشمالاً، فأنت إذن كهذه الأمواج الصماء لا إرادة لها؛ بل لا قوة لك على المسير ولا وعي لك بمقصدك، وإن من يسير بلا قوة ذاتية ولا وعي شخصي يكون من أضعف الناس، كان عليك أن تستمد القوة من نفسك لنفسك في أعمالك، ولا تحصل هذه القوة إلا بعد دراسة الموضوع من جميع جهاته، ثم دراسة كفايتك

من جميع وجوهها، فإذا هضمت كفاءتك الموضوع تقدم إليه بلا خوف من معارض، وإلاّ فابتعد عنه بلا استناد على شيء، فإن الله قد أودع فيك طاقة غير محدودة من القوى تتمكن فيها من تأدية الأعمال الشاقة، ولا أريد أن أقول: بأنك تستطيع أن تحقق المستحيل، فالمستحيل لا يتحقق، وإن من المستحيل أن يتمكن من عبور هذه البحيرة من لا يحسن السباحة، فإذا تعلمها أصبح عبورها من أسهل الممكنات...

قلت له: سيدي الأستاذ إن مراعاة التيار ومسايرة الموج من جملة قواعد السباحة، فأنا إذا اعتمدت على الموج أو جاريت التيار لم أكن مخالفاً لأصول فن السباحة وقواعدها؛ بل إنما أطبق قاعدة من قواعدها عملياً، فأنا لا أعتمد إلاّ على الفن وعلى نفسي حينما أعتمد على الموج في سباحتي، فليس كل من يعتمد على نفسه لا يعتمد على الموج، وليس كل من يعتمد على الموج لا يعتمد على نفسه، وهل سياسة الاجتماع إلا الاعتماد على الموج وإلاّ مجاراة الرأي العام، لأن التيار لا يكبح إلاّ إذا جاريته فعرفت موطن الضعف فيه، ثم نفذت إلى قواه فلويتها كما تريد.

قال لي: إنك تحدثني عن سياسة الاجتماع المبتنية على النفاق والخداع، والتي لا يفهمها الوجدان ولا يقبلها الضمير، إنني إما أن أؤمن بفكرة فأتبناها، وإما أن لا اؤمن بها فأبتعد عنها تماماً، إن مجاراة المحيط الممقوت، والرقص على نغمة لا يحبها الذوق شيء يأباه سلوكي الفردي والاجتماعي، فالإنسان الحر لا يقبل القيد ولو كان من ذهب، ولا يهضم المر ولو كان من غرس الجنة، وبما أنك تعيش في وطن العبيد طاب لك الخنوع؛ لأن الاستعمار الدولي فرضه عليك، فرحت تتجرعه حتى اعتدت عليه؛ بل وحتى أصبحت له قاعدة كلية تعتمد عليها سياسة الاجتماع، ولذلك ماتت فيكم روح الحرية، وفسدت في عروقكم الدماء، وزال من أعصابكم النشاط، فأنتم لا تعتمدون إلا على النفاق، ولا تسايرون إلاّ التيار، ثم تحاولون أن تلبسوه عنوان الفن ليقبله الذوق، ولتصبح مجاراة التيار من صميم الفن، إنك لا تكون عبداً لنفسك تخدمها حتى تتحرر من عبودية غيرك، ولا تتحرر من عبودية غيرك حتى تقطع احتياجاتك من ذلك الغير، فالحاجة طوق العبودية يضعها الأجنبي على رقبتك، فيقودك فيها كما يشاء، ولا أعني بالاستغناء عن الغير استغناءك في العناوين العامة التي تقوم بها المجتمعات، كالحرف والمهن

والفنون والعلوم، لا لا أعني ذلك، فإن تكوّن المجتمع بأعضائه، فحياته بحياة الأعضاء، فكما يقوم كل عضو من أعضاء بدنك بوظيفته الخاصة، فالعين تبصر، والأذن تسمع، واليد تلمس، والقدم تسير، ومنها يتكون هيكلك الموقر، كذلك الاجتماع فاعليته بفعالية أعضائه، فالطبيب يداوي، والمهندس يرسم الخطوط، والبنّاء يبني، والبقال، والعطار، والنجار، و... إلى ما يحتاجه المجتمع، فكل من هؤلاء يكون لبنة من المجتمع، ومنهم جميعاً يتكون المجتمع، فأنا لا أعني من استغنائك استغناءك عن هذه الأعضاء، وإنما أعني أن النجار ينبغي أن لا يعتمد في مهنته على العطار، والطبيب لا يستند في عمله على الأديب، والمهندس لا يتكئ في فنه على الصيدلي، وهكذا... لأن هذا الاستناد يميت فيهم روح الحرية، وينشر فيهم التخاذل، ويكبل كل واحد منهم بطوق العبودية للآخر؛ بل ينبغي أن لا يعتمد الطبيب في اختصاصه حتى على طبيب آخر، إلا إذا أدى إلى خيانة الإنسانية بخيانة العلم، وإنما يقوم بوظيفته حسبما تفرضه عليه مهنته، وتطيقه طاقته العملية، ولو اعتمد الطبيب في وظيفته على طبيب آخر مثله، وترك واجبه المهني كان مثله مثل الدولاب الغاص بالكتب، كل فائدته أنه يضم الكتب فقط،

إنه لا يفيد بعمله ولا يستفاد من عمله، وربما سرت روح التخاذل منه إلى أبناء مهنته، فاعتمد كل منهم على صاحبه، وتكون النتيجة أن المريض يموت لأنه لا طبيب له يداوي مرضه، بينما القطر يغصّ بالأطباء، كالظمآن يموت عطشاً وهو على الماء، وفي مثل هذا المحيط تخور العزائم، وتخان الواجبات، وتتعطل الأعمال، فيطمع بالوطن الطامعون، وتمد العبودية أشراكها لتصطاد هذا الشعب المتخاذل، إن الإنسان الحر ينبغي له أن يفهم أنه إنسان. وأنه حر، ولأجل أن تفهم الحرية أعرض عليك حقيقة العبودية.

إن العبودية هي فقد القدرة من كل شيء، فهو لا يستطيع أن يعمل أو يقول شيئاً باختياره، وإنما حياته بيد مولاه، يوجهها حسبما يشاء، فهو لا يقوم إلا حينما يريد المولى قيامه، وهو لا ينام إلا حينما يريد المولى منامه، فهو لا يستفيد من مواهبه ومخصصاته، وإنما فائدته لمولاه فقط، فهو الذي يوجهها حسب مصالحه العامة أو الخاصة، والحرية هي ما يقابل هذه العبودية تماماً، فالحر هو الذي يستخدم مواهبه ومخصصاته كما يشاء هو لا كما يشاء غيره. ولذلك يستخدم مواهبه ومخصصاته كما

يشاء هو لا كما يشاء غيره، ولذلك قلت لك: إن الحر إذا ترك مخصصاته لغيره كان عبداً من هذه الناحية لذلك الغير، وإذا سرت العبودية في ناحية من نواحي الحياة، أصبحت النواحي الحرة أيضاً مهددة بالعبودية ليعيش كما تريده الحياة، وإلا فهو غرض لهجمات المستعبدين ما دامت العبودية تحتل قسماً من حياته؛ لأن رائحة العبودية تجذب وحوش الاستعباد إلى نفسها كما تجذب رائحة الطعام الهرة الجائعة إلى مكمن الطعام، وإن مجاراة التيار من وسائل العبودية وحبائلها، فالذي يعتمد على التيار يفقد الثقة بنفسه، وإلا لما اعتمد على التيار، والفن الذي يعتمد على التيار أيضاً فن استعبادي نشرته العبودية لتصطاد به الثقة بالنفس حتى تتكل على الغير، وإذا زالت الثقة بالنفس، أصبحت النفس مسخرة لمن تثق به وهو معنى العبودية، وبعد كل هذه المقدمات، هل تتمكن من عبور هذه البحيرة؟ فإن سفرنا متوقف على عبورها.

خلعت ثيابي وشددتها برأسي ووضعت رجلي في البحيرة لأقيس ماءها، وإذا برجلي تغوص فيغوص بدني كله، وإذا بالماء يغمر ألبستي فتثقل كاهلي، وأردت أن أرميها في البحيرة

لأخفف عن جسمي، وإذا به يصيح بي: أتريد أن تسافر عرياناً، أنا لا أصاحب العراة في السفر؛ لأني لا أحب جمعية العراة التي شكلتها الوحوش البشرية في المنايا، وكدت أن أجيبه بغلظة وشدة لولا أن رأيت نفسي أبتعد عن الشاطئ إلى وسط البحيرة، فرحت أسبح وأسبح حتى كلّت قواي، كنت أنا أسبح وحضرة الأستاذ يتفرج على سباحتي من الشاطئ، إلهي ما هذه القساوة؟ أهذا الذي يدعي توجيه البشرية؟! أتراه من البشر؟! إن قلبه من الفولاذ والحجر، وفاجأتني موجة دفعتني إلى القعر حتى شربت كثيراً من ماء البحيرة وكان مالحاً، وكدت أن أفقد توازني واستسلم للغرق، لولا أن أهاب بي حب الحياة ودفعني لأن أجاهد بنفسي، وأواجه عزمي إلى التخلص من هذه الورطة، وهكذا رحت أسبح وأسبح حتى قاربت الشاطئ الآخر، وكدت أن أخرج من الماء، وحينما رأيت رفيقي يسبح أمامي، وينزل إلى الشاطئ الثاني قبلي أخذتني الحيرة، فمتى نزل إلى الماء؟ ومتى وصل إلى الشاطئ؟ وأنا الذي رأيته قبل لحظات يتفرج على سباحتي، وكأني ممثل يعتلي المسرح ليقوم بدوره التمثيلي، وكأنه ناقد صحفي يستعرض تمثيلي ليسجل عني نظرياته في صحيفته، فمتى نزل إلى الماء؟ ومتى اجتاز هذه المسافة حتى

عبر البحيرة قبلي؟ إنه والحق يقال يتمتع بقوى خارقة، فهل كان يستمدها من السماء؟ أو كان يستمدها من الجحيم؟ فربما يكون ملاكاً سماوياً، وربما يكون شيطاناً من أبالسة الجحيم، وكادت الأفكار المتشتتة تخرجني من وضعي وتفقدني توازني فأغرق وأنا على قيد خطوات من الشاطئ، لولا أن أهاب بي وصاح: توجه إلى نفسك ودع التفكير بغيرك، وأنقذتني صيحته فرحت أسبح بنشاط حتى وصلت الشاطئ، وخرجت من الماء لأنشر ثيابي في مجاري الريح لتغدو صالحة للبس بعد الجفاف، وجلست أمامه، فلم يلتفت إليّ، وكأني لم أقم بهذا العمل الجبار، أو كأن العمل تافه لا يستحق لفتة من حضرته، وبعد مدة قليلة قال لي: هل تذوقت لذة الاعتماد على النفس؟ وهل فهمت أن الحياة لا تحصل إلا بالاعتماد على النفس، لا كما تزعم بأنها تتوقف على مجاراة التيار، إن الاعتماد على التيار هو الذي أمات الشرق الحي، والاعتماد على النفس هو الذي بعث الغرب المائت إلى الحياة، فلولا أنك يئست من مساعدتي لما حصلت عندك هذه العزيمة القوية، ولما انبعثت فيك تلك الهمة العالية، ولما وصلت إلى الشاطئ سالماً، إنك كدت أن تترك ألبستك ضعفاً وخوراً، كما ترك أبناء وطنك وطنهم للأجنبي ضعفاً وخوراً، إن

العزيمة الصادقة التي تخلق الحياة تخلق القوة، ولكي نفهمها كان علينا أن نفهم معنى الصدق وموارده.

الصدق هو مطابقة الحال للواقع، فإذا طابق الخبر الواقع كان صادقا، وإذا اتجه القصد إلى المقصود كان صادقاً، وإذا ميزت النظرة خير الشيء وشره كانت صادقة، وإذا طابق صدقك الحق كان الصدق صادقا، فالصدق قد يكون في القصد، وقد يكون في القول، وقد يكون في النظر، وقد يكون في الصدق نفسه، فالعمل لا ينتج إلا إذا كان القصد منه صادقاً حتى يندفع إلى العمل بهمة ونشاط، فإذا صدق القصد وجد العمل، والقول لا تستفيد منه الإنسانية إلاّ إذا كان صادقاً، وإلاّ فالكلام عبء ثقيل على الإنسانية يجب عليها التخلص منه، والنظرة لا تنفع إلا إذا ميزت موارد الأمان من موارد الهلاك، ليسير إليها، وليأمن نفسه شر الدمار.

والصدق لا يفيد إلاّ إذا طابق الحق، ومعنى مطابقته للحق أن يكون مما يريده الله، لأن الله لا يريد إلاّ خير الإنسانية، ولا يكره إلاّ شرها، ولقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ لأن من صدق الله في عزمه وقوله ونظره وصدقه، لا يأتي إلاّ بالخير لنفسه وللإنسانية، ولقد صدقتك

حينما قلت لك: لا تعتمد إلاّ على نفسك، إذ لو كنت كاذباً في قولي لكنت الآن من المغرقين، وأعتقد بأن ثيابك قد جففتها الريح، فقم والبسها فإن الشمس تكاد تغرب، ونحن لا نستطيع أن نقضي هذا الليل في هذا المكان، وهكذا سرنا وسرنا بنشاط جديد، فكأن السباحة قد بعثت في أعضائي قوة جديدة فكان يسرع في سيره فألحقه، وربما كنت أتقدمه في السير، فيصيح بي: إن القافلة إذا تقدمت على الدليل مرقت وضلت، وطال سيرنا وسكوتنا حتى وصلنا إلى سفح جبل قطع علينا الطريق بطوله وعرضه، فلقد طاول السحاب بارتفاعه، وعارض الريح بقطره، وكان التعب قد أجهد قواي، ولكنني تماسكت على نفسي حتى انطرح على الأرض، فجلست أمامه، فقال لي: أظن أن السير قد أجهد قدميك، والصمت قد أجهد شهوتك للكلام، فأنت تحب الألفاظ أكثر مما تحب المعاني، وذلك من طبيعة الشعراء؛ لأنهم أبناء الألفاظ ينسقونها حسبما يوجههم الذوق الفني حسب اصطلاحهم المغلوط، فيبنون منها بيتا أو أبيات يسمونه الشعر، وقد يرتفعون به عن أرضه السحيقة إلى السماء العالية، فيسمونه الوحي، وأنت تعلم أن الوحي تنسيق الحقائق والمعاني، والشعر تنسيق الألفاظ والكلمات، والألفاظ وإن كانت

قوالب للمعاني، لكنما قد يكبر اللفظ عن المعنى، فيكون كثوب الشاب الفارع يلبسه الطفل الرضيع، فهو لا ينسجم مع المعنى في كل شيء، وأكثر الشعر من هذه الفصيلة، وربما تلاءم اللفظ والمعنى، فشف اللفظ عن المعنى، وشف المعنى عن اللفظ، ومن ذلك قول الصاحب بن عباد:

رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنه خمر ولا قدح ... وكأنه قدح ولا خمر

جلست أتطلع إلى البستان، فسحرتني أشجاره اليانعة، وقرع سمعي خرير شلال من الماء ينزل من الجبل ويصب في نهر يتوجه إلى البستان ليسقي أشجاره وأزهاره، ولقد كان تنسيق أشجارها يدل على أن يداً من البشر هي التي أوجدت البستان، فإن التنسيق مفقود في أشجار الغابات. قلت لرفيقي الأستاذ: أظن إن أحداً من الأعيان مر بهذه الأرض، فرأى الشلال الذي يصب في هذا المجرى ويمر بهذه الأرض التي دلت الأعشاب النابتة في شاطئ المجرى على أنها تربة خصبة صالحة للزرع، فراح يستملك هذه القطعة منها، ويغرس فيها هذه الأشجار والأزهار، بأسلوب فني رائع، كما أعتقد أنه أباحها للعابرين، ولا

سيما الذين يهبطون من هذا الجبل المتعب، وبهذه النظرية الفرضية يرتفع كل ما فرضته من المحاذير، وخلاصته:

أنها بستان مملوكة لثري يحب اللهو والجمال أباحها للعابرين، إذ لو لم يرض أن يدخلها أحد من الناس إلا بأذنه لما أباح حماها، فجعلها بلا سور ولا باب ولا كلب يحرسها، فنفس وجودها بلا معارض دليل على عدم معارضته للدخول.

قال لي: هب أني صدقتك، وأخذت برأيك، وذهبت معك إلى البستان، وهناك عرفت أنك اشتبهت في رأيك، فصاحب البستان لا يرضى أن يدخل إليها أحد من الناس، أو أن في البستان من المحاذير التي لا ينبغي لنا أن نجازف بأنفسنا فيها، فمن المسؤول عن الدخول؟ هل المسؤولية تقع عليك؛ لأنك سهلت لنا الأمر بأخيلتك وتصوراتك؟ أو أنها تقع عليّ؛ لأني مسؤول عن كل حركة وسكون مصدر منك في هذه الرحلة؟ لا شك بأن عبء المسؤولية يلقى على عاتقي، وأكثر من ذلك إنني سوف أكون موضع ملامة المدرسة وهيآتها التعليمية؛ حيث أخذت برأيك، بينما الوظيفة تقرر أن تأخذ أنت برأيي، فأي أستاذ ضعيف أنا؟ وأي تلميذ شقي أنت؟ ولذلك ينبغي لي أن أدرس

موضوع الدخول بنفسي، فإذا اقتنعت بعدم وجود مانع في البين صاحبتك إلى البستان. وتركته يفكر قليلاً، ثم يقول لي: لا مانع عندي من الدخول، وهكذا زرنا البستان، وطفقنا نستعرض مشاهدها الفاتنة، فإذا بها نموذج حي للفن الزراعي الراقي، فهذه الصفوف المتراصة من الأشجار وهذه الألواح المنسقة من الرواء، وهذا البساط السندسي الذي رسمت فيه ريشة الفن بدائعها وروائعها حتى أصبح فتنة للناظرين.

والحق يقال إنها جنة عالية قطوفها دانية، ومشينا فيها حتى بلغنا بحيرة صناعية في وسط البستان بنيت بالإسمنت، وقد وضعت حولها كراس من الحديد، تدعو العابر إلى الجلوس، فجلسنا ونحن في حالة مسحورة قد أسكرنا جمال البستان، وأنسانا متاعب السفر ومشاقة، وقد حفلت الأغصان بالعصافير والبلابل بين مزقزق ومغرد، إنها لذة ما فوقها لذة، وأعتقد بأن رفيقي الأستاذ قد سحرته هذه الروعة فراح يختلس المتعة منها ما وسعه الاختلاس، وترك الفلسفة وآفاقها الموحشة، إنه لا يلتفت إليّ، ولا يلقي بأسئلته المرهقة عليّ، إنه في حالة من الصفاء، وفي نشوة من الأحلام، وحلق الفكر بخيالي حتى نسيت نفسي

ورفيقي لولا أن أعادني صوته إلى واقعي، فإذا به يسألني: أظن أن المنظر أثار شاعريتك بعد ركودها، إنك تعرج في آفاقها، ولا تلتفت إلى حالك ومستقبلك، إنك لا زلت تعيش بماضيك، وما أمات الشرق إلا حياته بماضيه، فهو لا زال يعيد نغمة الآباء والأجداد، ويتشدق بالفتوحات العربية الماضية، فإذا سألته عن نفسه وعن جهادها في الحياة رأيته يلتفت إلى الماضي فلا يعيد إلا ما بدأ به أولاً، إنه اكتفى بالماضي فعاش به، وترك مستقبله للحوادث تلعب به ما شاءت، فهو مستعبد للغرب، وأرضه مستعمرة لقواه، وأتعابه وجهوده مستغلة من قبل رجاله، فإذا حاولت أن تستفزه لوّح لك بالماضي، فكأن هذا الماضي هو الحياة الواقعية، وما سواه خيال عابر لا يستحق أن يهتم به الإنسان، ليت هذا الماضي نسيَنا لننساه، إنه أصبح الغل الذي يستعمر مواهبنا وأحاسيسنا، إنه السد الذي يمنعنا من التقدم إلى الأمام، ولو أننا كنا نتخذ من الماضي عبرة نستدل بها إلى المستقبل لكان لنا فتح جديد في الحياة، ولعُد وجوده طفرة موفقة في تاريخنا الزمني، ولكننا نحلم بالماضي فنلتذ به، ونكتفي بلذة أحلامه عن الواقع المر الذي نعيش فيه، وأنت أ لست ابن هذا الشرق؟ أقلتك أرضه؟ وأظلتك سماؤه؟ وأولدتك رجاله؟ وحملتك نساؤه؟ إنك

مصداق له في كل أحاسيسك، إننا قاسينا ما قاسيناه لننسيك هذا الماضي، ولنخرجك من مزالق الخيال، لنلمسك الواقع، ومع ذلك إذا غفلنا عنك لحظة، أو غفلت عن نفسك لحظة رجعت إلى ماضيك لتحلق بك الشاعرية بأجنحة الخيال إلى سماء الأحلام والأوهام، إنك أسوأ حالاً من هذا العصفور، فهو حذر مني وينتهي كتاب برحلته المثيرة في علم النفس إلى هذا المقطع: «منك ومن المفاجآت».

وسكت الأستاذ قليلاً ثم قال: إننا سنختم محاضرتنا بإبداء حقيقة ظاهرة ربما غفلتم عنها، وهي أن مثل هذا السالك الإلهي يكون قد وصل في سيره الوجداني إلى درجة سامية من الوجود؛ لأنه قد اتصل بالوجود المطلق، ذلك الوجود الذي ينبعث منه الوجود، فالوجود أثر من آثاره، فهل يتساوى الأثر والمؤثر في الحقيقة كما يتساوى الضوء والنور مع أنهما علة ومعلول؟ أو تختلف حقيقة الوجودين كما تختلف حقيقة الشمس عن حقيقة أشعتها؟ إن الوسائل الإنسانية على اختلاف منازلها ومراتبها لم تحل هذه المشكلة، ولا يهمنا حلها بعد ما عرفنا بأن هذا الوجود أثر من ذلك الوجود، وهب أنهما يتحدان اسماً

وحقيقة، أو يختلفان ماهية، وإن اتحدا عنواناً...، إن ذلك لا يهمنا بعد ما عرفنا بأن الأثر المتصل بالمؤثر أقوى جداً من المنفصل عنه، فالنور المقترب من الشمس أقوى من الشعاع المبتعد عنها، والسالك المتصل بالعالم الإلهي أقوى وجوداً من غير المتصل به، ولذلك راح يرى ويسمع ويحس بما لا يدركه غيره، إن علمه من علم الحق فهو يشهد الحقائق بلا وسائل الشهود، إنه يشهدها بالعلم اللدني الذي استودعه لديه العليم الحكيم: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾، كما حققنا ذلك سابقاً، فعلمه شهود بلا حجاب وانكشاف عيني، لا شهود علمي أو كشف بوسيلة الأدلة، وحتى نظره أيضاً فإنه نظر خاص لا يستعمل فيه هذه الأدلة المسماة بالعين، إنه يرى في كل جارحة من جوارحه بل إنه يرى بلا جارحة، إنه ينظر من خلفه كما ينظر من أمامه، لأنه في عيش الشهود، قد فنى في حقيقة الوجود...، والذي يفنى في الشهود والوجود لا يغيب عنه شهود ولا موجود، إن وجوده متضخم جداً، وإشعاعاته شديدة القوة، فهو محيط بكل شيء، وهو نافذ في كل شيء؛ لأنه يتصل بالمحيط اللطيف..

وسكت الأستاذ...، ثم حيانا وأنصرف، وهكذا بقيت وحدي

وأنا في صفي مع التلاميذ، بقيت وحدي لأني انجرفت بتيار الآفاق التي أوصلني إليها أستاذي الكريم، ورحت أدرس موقفي فيها، فإذا وجودي ينجذب إليها بقوة جبارة، وهناك استحال وجودي سمعاً ماج فيه نداء <اخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى> ما هذا النداء؟ وما هو الواد المقدس؟ فهل الأفق الذي تجذبني تياراته هو الواد المقدس؟ وماذا يريد هذا المنادي من قوله: اخلع نعليك، إنني لا احتذي نعلاً لأخلعه، فماذا يريد من الخلع؟ هل يرمز عن النعل بخلع المشخصات الوجودية ليؤهلني إلى الاتصال بالعالم المجرد، إن المجرد لا يراه إلاّ المجرد، إنني تجردت من كل شيء، تجردت من حياتي الشخصية، فتركت أهلي وإخواني ووظيفتي وشخصيتي.. والتحقت بهذه المدرسة التي راحت تسير بي في حياة جديدة حتى أوصلتني إلى هذا العالم، هل يريد أن يجردني حتى من هذه المدرسة؟ أ ليست المدرسة هي الطريق الموصل إليه، أعتقد بأنه يريد أن يجردني من المدرسة، بمعنى أن أخلع علاقتي مع هذه المدرسة لأخلص له، فهو لا يريد شريكاً في العبادة أي في الحب، وهل الحب إلاّ عبادة الأحرار والأبرار؟ إنه يريد أن يجرد إيماني به من وسائل الإيمان وإن كانت السبب في إيماني به؛ لأن الوسائل في نظره

حجب للإيمان الصحيح.. إنه يريد أن يجردني حتى من نفس الشهود؛ لان الشهود إنما يحصل بوسيلة الآلة الشاهدة، والآلة في نظر الشاهد حجاب المشهود، فهو يريد أن يخلصني منها ليخلص شهودي إليه، إن هذه الوسائط في نظره كالنعل يلزم خلعها مثله؛ لأنه لا محل لها في المواطن المقدسة، وكذلك يلزم المواصل إلى حضيرة الجمع أو منطقة الشهود أن يخلع عن نفسه كل الوسائل والوسائط فإنها أجنبية لا تلائم مقام القرب المقدس أو حرم الحق الشريف، وحينما وصلت في سيري الوجداني إلى هذه المنطقة، رأيت وجودي يتجرد عن كل شيء حتى عن الوجود نفسه، يتجرد عنه لكي لا يبقى هناك إلا الحق وحده، إذ لم يبق في عوالم حياتي إلاه، فهو الذي يشغلها كلها، إنني الآن لا أحس إلاّ به، إنه هو الذي يدبر عوالمي وأكواني، إن الزمان والمكان معمور به، إنني مفرد مثله، إنني أو إنه يشغل كل آفاق الحياة أو آماد الوجود، أنا وهو، إن أمري لعجيب! هل هذا العالم الضاج بآلاف الملايين من الصور والحقائق يخلو في لحظة واحدة إلاّ عني وعنه؟ فهل بعد ما جردت العالم عن سواه يبقى لوجودي أثر يشير إليّ؟ إنني مضطرب، إنني أكاد أخرج عن حدود المنطق، إنني.. إنني.. هل أنا أنا، وهل هو هو؟ إنني لا أفهم

شيئاً، إن هذه المنطقة حساسة وخطرة جداً، إن المنطق تتلاشى وسائله في هذا المكان، فهو يكاد أن يعربد كما عربد السكارى من المتصوفة، إنني لا أحب أن أعيش صوفياً ينكر كل شيء، إنني فرد من الناس، إنني عبد الله، إنني رشح من البحر، إنني.. إنني، ومع ذلك فقد تلاشى كل شيء في الوجود فلم يبق إلا أنا وإلاّ هو، فهل أنا أنا؟؟ وهل هو هو؟؟ إنها منطقة الشك الذي تهوي بالإنسان إلى الإلحاد. رب أعنّي على مقامي فإني أصبحت منك على قاب قوسين أو أدنى، إنني فرد، وإنك فرد في هذه المنطقة، وأخال نفسي قد تلاشت أيضاً، فلم يبق وجود إلاّك... وهنا يهتف الإيمان بي: أن ارجع إلى نفسك، فقديما أرشدني أئمة الهدى إلى خطر هذه المنطقة بقولهم: «إن لنا مع الله حالات نخال بأننا هو، وبأنه نحن، ولكنه هو هو.. ونحن نحن»، وإن هذه الحالة وأعني بها حالة الانفراد من تلك الحالات، فإني أخال أن نفسي قد تلاشت ولم يبق إلاّ وجهه، إنني موجود. موجود بشخصي، فأنا أنا ولا شك بأنه موجود بعالمه المجهول، فهو هو، كل ما هنالك أن حجب العلم والمنطق والمحيط والعادات والتقاليد كلها قد ارتفعت، ولم يبق هناك إلا الواقع المشهود والحق الموجود، فأنا معه فقط، وهو معي فعلاً، أكاد أراه وألمسه وإن كنت لا أراه ولا

ألمسه، إن هذا الفراغ يكاد أن يجنني، وهل بقي لي عقل ليمشي إليه الجنون؟! إنني قد تركت العقل وعوالمه جانباً حينما بلغت درجة الشهود، فالعقل إنما نحتاجه كوسيلة إلى الواقع، فإذا أدركنا الواقع فأي حاجة لنا بالعقل؟ إن هذا الفراغ يكاد يصرعني، فأكاد أنكر نفسي، فأخالها قد تلاشت ولم يبق إلا وجهه، ومع ذلك فإني أحس بنفسي وبأني موجود، فالفراغ يشغلني كما يشغله، فهو. وأنا. هو هو. أنا أنا، وهنا رجعت إلى وعيي وإذا بالأستاذ يهزني بشدة، ويقول لي: أفق أفق، إنك وصلت إلى منطقة دقيقة تحتاج إلى الإفاقة، احذر من السكر فإنه يهوى بك إلى أعماق هاوية لا قرار لها، أفق والتفت إلى نفسك، إنك في منطقة الحق، إنك في حضيرة الجمع، أوَتدري ما هي حضيرة الجمع؟ إنها منطقة تجمعك بالحق، ولا يمكن الجمع معه إلا بإسقاط التفرقة بينك وبينه، ولا يمكن إسقاطها إلا بفنائك فيه، بحيث تندك فيه اندكاكاً وجودياً، وهذا المعنى وإن لم يتحقق لأحد إلا بالفناء الحقيقي، حيث تفنى الذات، وتذوب العناصر، وترجع الوديعة إلى بارئها لتتصل بالحق وتجتمع معه، ولكن الاندكاك الوصفي أيضاً له خصائص الاندكاك الذاتي، فإن عروض الصفة لابد وأن يكون على الموصوف، ولا بد أن يكون بين الصفة والموصوف

توافق طبعي، ليقبل الموصوف الصفة ولتنطبق الصفة على الموصوف، وإلاّ فإن عروض الحرارة على الثلج، أو عروض البرودة على النار من المستحيلات الأولية، ولما كانت صفات الحق لا تعرض إلاّ على ذات الحق، لذلك يلزم للسالك أن تستحيل ذاته في الحق حتى تعرض عليه صفاته، وإلاّ فإن صفات الحق لا تعرض على ذات تخالف الحق في ماهيتها.

إن هذا المعنى يعرض على السالك الوارد إلى حضيرة الجمع، لكنه لو تأمل جيداً لعرف أن هذا المعنى مما يأباه المنطق وينفيه الإيمان، إن هذا السالك لما صهر صفاته في بوتقة الرياضات الإلهية حتى أصبحت تحاكي صفاته الحق في الخصائص والآثار، وحتى صارت ملكاته لا تستجيب إلاّ للدواعي الإلهية، فقد تخيل أنه ارتدى صفات الحق نفسها، أي حلت فيه صفات الحق، ولما كانت صفات الحق لا تحل إلا في ذات الحق، فلا بد وأن تكون ذاته أيضاً منصهرة في ذات الحق، وعلى هذا البيان يكون السالك هو الحق، لأن صفاته صفاته، ولا تعرض صفات الحق إلا لذات الحق، فتكون ذاته أيضاً ذات الحق، فهو الحق، هذا ما تصوره له العربدة الصوفية، ولكن المسكين

قد غفل عن أن العبد إذا صهر صفاته في صفات الحق حتى أصبحت ملكاته ملكاته في الدعوات والاستجابات، فإنه لا يلزم هذا الانصهار الوصفي انصهارا في الذات أيضاً، لتتبدل حقيقته بحيث تتحول ماهية ذات العبد إلى ماهية ذات الحق، إن الحق لا يزال بماهيته المجهولة، وله صفاته وآثاره، وإن العبد لا يزال بماهيته العبدية التي خلع عليها صفات تحاكي صفات الحق في الآثار، ولو توجه جيدا إلى ذاته وصفاته لشاهد أن صفاته بحدودها غير صفات الحق بحدودها، إن الحديدة الممحاة وان حاكت النار بلونها وأثرها إلاّ أن النار لا تزال ناراً والحديدة لا تزال حديدة، وكذلك السالك الذي يتلبس بصفات الحق، فتصبح دعواته واستجاباته دعوات الحق واستجاباته، حتى توهم أنه الحق، إن صفات هذا السالك لا تزال صفاته، وصفات الحق لا تزال صفاته، لكل منهما حدودهما المشخصة لها، إلاّ أن تشابه آثارهما أدى إلى شبهة الوحدة.

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنه خمر ولا قدح وكأنه قدح ولا خمر

ولكننا لو دققنا النظر جيداً لرأينا القدح لا يزال قدحاً، والخمر

لا يـزال خمـراً .. إنكـم أيهـا الواصلـون إلـى حضيـرة الجمـع، الرافعـون الحجـب والملابسـات بينكـم وبينـه، حتـى أصبحتـم تشـاهدون الحق بعيـن الحـق، لا تغركـم هـذه الظاهـرة التـي تجعلكـم تتصـورون أنفسـكم آلهـة، إنمـا الله إلـه واحـد لا شـريك لـه، إن السـير إلـى الحـق يشـرفكم علـى وحـدة الحـق فـي ذاتـه وصفاتـه، فأنتـم أنتـم. وهـو هـو. لا شـريك لـه.

الـى هنـا تنتهـي المقاطـع مـن كتـاب «هكـذا عرفـت نفسـي» أمـا هـذا الكتـاب الـذي بيـن يديـك عزيـزي القـارئ فهـو رحلـة أخـرى في عالـم الـروح قـد لا تتوفـر فيـه عناصـر الإمتـاع الأدبـي لكنـه ينطـوي علـى كثيـر مـن الحقائـق التـي ينبغـي الاطـلاع عليهـا.

إنـه يشـير وبصراحـة أكثـر إلـى تاريـخ الإنسـان ومصيـره، وهـو علـى كل حـال تجربـة مـن تجـارب الـروح يجـدر بنـا جميعـاً الاطـلاع عليهـا.

بقيـت مسـألة أود الإشـارة إليهـا فـي هـذه السـطور وهـي ضـرورة تطويـر نظرتنـا إلـى الأشـياء، لقـد اعتدنـا رؤيتهـا بأبعادهـا الثلاثـة ثـم فاجأنـا انشـتاين بالبعـد الرابـع وهـو «الزمـن».

وكان الفيلسـوف الإيرانـي مـلاّ صـدرا قـد سـبقه فـي الإعـلان

بأن الزمن بعدٌ كمي للأجسام والبعد الرابع للأشياء؛ لأنه مقدار الطبيعة المتجددة بذاتها من جهة تقدمها وتأخرها الذاتيين، وهذا أمر ممتد وكمي ذلك أن جميع الموجودات التي في العالم واقعة لذاتها في الزمان والتغير، مندرجة تحت مقولة «متى»، كما أنها واقعة في المكان مندرجة تحت مقولة «أين»، فالزمن بعدٌ أصيل في الجسم وهو ليس علّة للحركة كما أن الحركة ليست علّة له(١) وقد بحث الفيلسوف الراحل هذه المسألة مفصلاً فيما عرف بعد ذلك بنظرية الحركة الجوهرية.

وفي ضوء الإثارات الروحية في التكوين الإنساني في عالميه الداخلي العميق الأغوار وما يحيطه من وجود فسيح لانهاية له وفي التناسق الذي يكاد يوحّد بينهما الوشائج القوية التي تربطهما يمكننا أن نثير مسألة أخرى هي وجود بعد آخر للأشياء يمكننا أن ندعوه بالبعد الخامس.. هذا البعد الذي يشير إليه الكتاب ويسميه بالعبد الملكوتي.

فالقرآن الكريم يتضمن إشارات صريحة في هذا المضمار ورؤيا يوسف عبرت عن الشمس والقمر والكواكب بـ «رأيتهم»

١. الأسفار الأربعة: ١١/٣.

دلالة على أن ما رآه كان يتجسد في موجودات مدركة تتمتع بالشعور، وربما يكون ذلك على أساس الرؤيا في التعبير عن مخلوقات آدمية سوف تتجسد في أبويه وأخوته.

لكن القرآن يشير أيضاً إلى مسألة عرض الأمانة وقد أشفقت عن حملها السماوات والأرض وحملها الإنسان(١). إضافة إلى مجيء السماوات والأرض طاعة(٢)، وكذا تسبيح الأشياء لله(٣).

كما ورد في الرواية إن صخور الجبل إبان بعثة النبي ﷺ كانت تشهد لرسول الله بالنبوة.

وهذه الرواية التي يرويها الزهري عن سعيد بن المسيب قال: «كان القوم لا يخرجون من مكة (بعد انتهاء موسم الحج) حتى يخرج علي بن الحسين سيد العابدين، فخرج وخرجت معه،

---

١. الأحزاب: ٧٢ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

٢. فصلت: ١١ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

٣. الإسراء: ٤٤ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

فنزل في بعض المنازل، فصلى ركعتين، فسبح في سجوده بهذا التسبيح:

سبحانك اللهم وحنانيك
سبحانك اللهم وتعاليت
سبحانك اللهم والعز إزارك
سبحانك اللهم والعظمة رداؤك
سبحانك اللهم والكبرياء سلطانك
سبحانك من عظيم ما أعظمك
سبحانك سبحت في الأعلى تسمع وترى ما تحت الثرى
سبحانك أنت شاهد كل نجوى
سبحانك موضع كل شكوى
سبحانك حاضر كل ملأ
سبحانك عظيم الرجاء
سبحانك ترى ما في قعر الماء
سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار
سبحانك تعلم وزن السماوات
سبحانك تعلم وزن الأرضين

سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر
سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور
سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء
سبحانك تعلم وزن الريح كم هو من مثقال ذرة
سبحانك قدوس قدوس قدوس
سبحانك عجباً من عرفك كيف لا يخافك
سبحانك اللهم وبحمدك
سبحان الله العلي العظيم».

ويقول الراوي الذي شهد تلك الواقعة: فلم يبق شجر ولا مدر إلاّ سبح معه، ففزعنا فرفع رأسه فقال: يا سعيد أفزعت؟

فقلت: نعم يا بن رسول الله.

فقال: هذا التسبيح الأعظم، حدثني أبي عن جدّي عن رسول الله صلى الله عليه وآله لا تبقى الذنوب مع هذا التسبيح، وإن الله جل جلاله لما خلق جبرئيل ألهمه هذا التسبيح وهو اسم الله الأكبر(١).

فهناك بُعد خاص مستور في الأشياء التي قد تبدو لنا في

١. الصحيفة السجادية.

ظاهرها جامدة لأننا لا ندرك أسرارها.

فكما أننا لا ندرك تلك الحركة الهائلة في ذراتها نجهل أيضاً تسبيحها.

ولذا نحن مطالبون بالإصغاء والإنصات أكثر لنسمع نشيد الكائنات وسمفونية هذا الوجود العظيم الذي يسبح لله الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى.